الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

الإدمان على المعاصي والاستغفار المتكرر

حلقة مفرغة أم طريق للخلاص؟

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

لم يكن في الغرفة ضوء، لكن هنالك وهج خافت ينسكب من نافذة صغيرة على سجادة الصلاة، السجادة ذاتها، والمكان ذاته، والساعة ذاتها، والذنب ذاته..

ها هو في بداية العشرين من عمره، ينحني بجسده فوق الأرض، جبينه يلامس السّجادة كما في الليلة التي قبلها... وقبلها... وقبلها، تتسلّل من صدره تنهيدة اعتراف لا تحتاج إلى صوت، وكأنّه يقول:

"يا رب... أنّي أعود إليك، بعد أنْ عدتُ لنفسي السيئة من جديد"

ضغط كفيّه على الأرض بقوّة، كأنّه يحاول أنْ يثبّت روحه في جسده المترنّح بين الندم والإدمان، ثمّ يتمتم بصوتٍ مختنق: "استغفرتُك ألف مرة، وعدتُ إليك ألف مرة، فهل ستغفر لي مرةً أخرى؟" يسكت، لكنّ قلبه لا يعرف للصمت طريقاً..فهو ..

لا يخاف من اللّٰه بقدر ما يخاف أنْ يكون اللّٰه قد ملّ من توبته...

ينتهي مشهد قد عاشه معظمنا، إنْ لم يكن جلّنا وما زلنا نعيشه، ففي زوايا النّفس البشريّة تختبئ معارك خفيّة، أبطالها ليسوا بالضّرورة من أهل الصّلاح أو الفجور، بل من العالقين في المنتصف، الذين يبكون بعد كلّ ذنب، ثم يعودون إليه، الذين يكرهون معصيتهم لكنّهم أسرى لها، وهنا تبدأ المعضلة الكبرى:

هل الاستغفار المتكرّر بعد تكرار الذنب مجرّد تكرار آلي؟

أم هو لوح النجاة المتبقي من قاربٍ يغرق؟

هل نحن في "حلقة مفرغة" أم على "سُلّمٍ روحي" قد تكون درجاته متعبة إلّا أنّ نهايته نور؟

إنّ الذنب حين يتكرّر، يصبح عادة، ومن ثمّ يتحوّل إلى إدمان، والإدمان لا يُهزم بسهولة إلاّ بتوفيق من اللّٰه، والتّكرار لا يعني بالضرورة الاستخفاف، بل قد يكون مؤشراً على عمق الألم النفسي، أو الفراغ العاطفيّ، أو حتّى التعلّق بمصدر لذّة بديل عن الاحتياج الحقيقي من حبّ و أمان، أو تقدير وغيره، ولذلك فإنّ بعض المعاصي تحتاج إلى علاج جذريّ، لا مجرّد النّدم العابر، فالرحلة لا تبدأ من تأنيب الضّمير، بل من فهم الجرح الذي يدفعك لتكرار الخطيئة نفسها.

فالمشكلة ليست في الذّنب نفسه وحسب، بل في أثره التّراكمي في الروّح، والمعصية المتكرّرة تُضعف الحساسيّة الأخلاقيّة، وتُميت الخوف من اللّٰه تدريجياًّ إلى أنْ يصبح الذنب عادة لا تترك أثراً داخلياً، وهنا نصل إلى مرحلة خطيرة جداً ألا وهي مرحلة البرود الروحي، وفيها تصل لدرجة لا تبكي بعدها، ولا تستغفر، ولا حتّى تتأثر، فهذا التبلّد الإيماني أخطر من الذّنب نفسه، لأنّه يُطفئ أجهزة استشعار الإنذار الداخليّة بالذنوب، ويترك النّفس في ظلامها دون مقاومة.

فالبكاء والاستغفار واستشعار الذنب ما هي إلاّ مؤشرات بأنّ ضميرك ما زال حيّاً، وأنّ قلبك لم يصدأ، ولم يصبه الران بعد، فالاستغفار، في حقيقته، ليس مجرّد تكرار لفظي، بل كنز عظيم ومفتاح لرحمة اللّٰه، وطبع البشر ارتكاب الأخطاء والمعاصي، إلاّ أنّهم برحمة اللّٰه في استغفار يقبله اللّٰه إنْ كان صادقاً، ولو تكرّر، فقد قال النبي صلّى اللّٰه عليه وسلّم في الحديث الصحيح: "أذنب عبد ذنباً، فقال: رب اغفر لي، فقال اللّٰه: علم عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذنب... فليعمل ما شاء" رواه مسلم، فلا يراد في هذا الحديث فتح الباب للذنوب، بل فتح باب للأمل أمام التائبين المستغفرين الصادقين حتى وإنْ تكرّر ذنبهم، ما دام القلب لم يتبلّد ولم يتوقّف عن طلب الرحمة، فكم من شخصٍ يبكي بعد معصية ويشعر بالخجل، ويرفع يديه بالدّعاء، ولكنّه يعود بسهولة لما ندم عليه؟

لذلك فقد وجب الوقوف ها هنا وقفة تفريق بين توبة صادقة نابعة من قرار، وبين توبة عاطفيّة نابعة من لحظة شعور، فالأولى تُبنى على نيّة حقيقيّة، وتخطيط فعليّ للابتعاد عن أسباب الذنب، أمّا الثانية فغالباً ما تكون كردّ فعل مؤقّت، تزول بانتهاء لحظة الضّعف، ولذلك فإنّ التربية الإيمانية لا تكتفي بإثارة المشاعر، بل تبني وعياً قلبياً وعقلياً يُنتج توبةً طويلة النفس.

إلاّ أنّ من أصعب ما قد يمرّ على التّائب، أنْ يكون مجتمعه ممّن يحكم بسرعة، فيستلذّون بإرسال كلام قاتل للتوبة والندم، فيرسلون عبارات جزافاً من مثل: فلان لا يتوب، وفلانة منافقة، في حين أنّ كثيراً من هؤلاء يعيشون صراعاً نفسياً مريراً ويحتاجون دعماً تربوياً وتشجيعاً لا إدانة.

والمشكلة ها هنا تكمن بأنّنا نخلط بين النّصيحة والتوبيخ، وبين التربية والجَلْد، فالتربية الحقيقية تبدأ من تقديم بدائل للفراغ لا من تخويف وحسب، فنحن نحتاج إلى بيئات حاضنة، تعلّم الإنسان أنّ اللّٰه لا يقبل الصلاح الجاهز فقط، بل يُحبّ القلوب التي تنكسر ثم تُجبر بذكره، ويحبّ سماع الصوت الذي في داخلنا، ففي كلّ منا صوت يلوم، يؤنّب، يذكّر، ويبكي، وهذا صوت النّفس اللوّامة، التي قد تكون أعظم نعم اللّٰه على الإنسان، فهي الحارس الأخير قبل أنْ ينطفئ نور القلب للأبد، ويكسوه الران وتغدو القلوب غلفاً، فالخطأ ليس في وجودها، بل في إخماد صوتها أو الهروب منها بمعاصٍ جديدة، لذا علينا أنْ نقوم بتحويل لوْمها إلى طاقة إصلاح، لا إلى جَلْد ذاتٍ يجرّنا لليأس بأغلال من معاصٍ متراكمة، وهذا يتوافق مع قوله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: 33)، فهنا وعد عظيم، وضمانة إلهيّة لكلّ من استغفر ....

فالمعصية حين تبدأ في سنّ مبكّرة دون وعي، تصبح عادة يصعب التّحرر منها، لذلك فإنّ بناء الوعي الإيمانيّ والرّقابة الذاتية يجب أنْ يبدأ مبكراً، فترتبط فكرة عبادة اللّٰه ببعد أعمق من كون أنّه يرانا بل لأنّ قلوبنا تتألّم لخيانة اللّٰه بالمعاصي، وترتبط فكرة بعدنا عن المعاصي أيضاً لا لأنّنا نخاف النّار، بل شوقاً للنّقاء والجنان، ولا نعرف اللّٰه بكونه المنتقم وحسب، بل هو الستّير الغفّار، فهكذا يتمّ صقل روح الإنسان وتربيتها على محبّة الطهارة والعفّة، لا كراهية الذنب والمعصية وحسب، وقتها فقط تكون مقاومته للمعصية تلقائية عفويّة من ذاته القانعة بالصّواب.

ARAB-PSF.COM

لذا فمن هنا تبدأ خارطة النجاة والخلاص والتوبة، وأولى خطواتها الاعتراف، وليس أيّ اعتراف، هو اعتراف بأنّنا لا نملك عصمة الملائكة، وأنّ الاستغفار المتكرّر ليس فشلاً بل إصراراً على عدم الاستسلام، ومن ثمّ يلي الاعتراف فهم، وليس أيّ فهم، بل هو فهم جذور الذّنب النفسية والاجتماعية، وفهم لآليّات تقوية الروابط الروحية باللّٰه، وفهم لكيفيّة بناء صحبة صالحة وبرامج تغيير واقعية، وفهم لأهميّة إحياء لحظة صادقة بينك وبين اللّٰه تقول فيها: "يا رب، لا أريد أن أكون عدواً لنفسي أكثر من هذا."

إذاً – يارعاك اللّٰه - ليس عيباً أنْ تكرّر الذنب، لكنّ الخطر كلّ الخطر أنْ تتوقّف عن التوبة والاستغفار، فالتائبون من الذنب كمن لا ذنب لهم، فعليك أنْ تقنع نفسك بأنّ اللّٰه لن يغلق أمامك باب التوبة، فلا تحثّ خطاك مسرعاً للوحل، بحجج واهية، بل ابكِ، استغفر، وارجع، ولو ألف مرة، لأنّ الطريق إلى الجنّة لا يُمشى فيه بنقاءٍ ثابت، بل بقلوب تنكسر وتعود، وتنكسر وتعود، وتنكسر وتعود ألف مرّة، إلى أنْ تُشفى.

فهل فكرت يوماً بأنّ اللّٰه لا يُريد منك أنْ تنتصر فجأة، بل أنْ تتعلّم كيف تُجاهد؟ فلربّما المعصية التي تتكرّر ما هي إلاّ تمارين صبر، ودروس صمت، وفرص لتجديد العلاقة باللّٰه بعمق أكبر كلّ مرة، فالتوبة بعد التوبة ليست فشلاً، بل دليل على أنّك لم تتبلّد، ولم تستسلم، ولم تُعلن وفاتك الروحية بعد، فمن ينهض بعد السقوط ألف مرة، أقرب للّٰه ممّن لم يذق طعم المجاهدة ولو لمرة.

وأخيراً ،

فإنّ الاستغفار هبة وإلهام من اللّٰه، فالإنسان لا يستغفر بمحض إرادته وحسب، بل بتوفيق من اللّٰه وتسديد، فعندما يلهمك اللّٰه وتشعر برغبة صادقة في الاستغفار فهذه محبة كبرى، ودليل على محبة اللّٰه لك ورغبته في الغفران لك، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه:82)، فهذه الآية تدلّ على أنّ اللّٰه قد هيّأ قلبك للتوبة والاستغفار..

فهنيئاً لمن أدرك هذا الكنز العظيم وأكثر من حمله....